

كتب بالعربية

من داخل إسرائيل،

الآن ومنذ نصف قرن

مجموعة من الباحثين

تقديم: جورج حبش

تحرير: عماد جاد

القاهرة: ميريت للنشر والمطبوعات، 2002

جهود طيبة

نتمنى أن تستمر

قيل قديماً إن "من يفتح مدرسة يخلق سجناً"، ومن الصحيح طبعاً أن من يؤسس مركزاً للأبحاث يقوم بعمل تنويري يعيد صوغ الوعي، وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بإسرائيل والصراع العربي - الإسرائيلي، الذي كان أمر التداول "الجدي" فيما يتعلق به من شأن أجهزة الدول العربية المدنية والعسكرية والأمنية، وحيث كانت محاولة معرفة العدو، ولفترة طويلة، أمراً محظوراً بل مدعاة للشبهة إذا تجاوز الكتاب الرسمي أو المسموح بتداوله، والذي يكون مرّ على أجهزة رقابة استنسابية مهجوسة بسلامة وأمن الأنظمة التي تخدمها، وبالحرص على "السلامة العقلية والنفسية" لمواطنيها فلا يقعون ضحية دعاية العدو وأحابيله!

وإذا كان من دواعي الاغتباط هذا الازدهار النسبي لمراكز الأبحاث المهمة بالتعريف بالعدو، أو بهذا الجانب أو ذلك من جوانب الصراع معه، فمن المغبط أكثر نشوء مركز بحث مستقل يحرص على اختيار برنامجه، واختيار باحثيه وأدوات بحثه، مركز وثيق الصلة بالحركة الوطنية في بلده وبالحركة القومية، ويضع نفسه في خدمتهما من خلال إيقاد شمعة إضافية تجاوزت التبرم بالظلام!

وأن يكون الدكتور جورج حبش هو المبادر إلى تأسيس مركز للأبحاث، والرجل في منتصف سبعيناته وفي أوضاع صحية معروفة، لتأكيد أن هذا القائد الوطني الفلسطيني والقومي العربي ما زال مهجوساً بطرح الأسئلة المصيرية التي تتجدد مع تعقد الأوضاع وتبدلها؛ ولقد قيل عن صواب إن الأسئلة الجيدة هي شرط الأجوبة الجديدة، ولعل بين الأسئلة المفتاحية ما يطرحه جورج حبش على نفسه وعلينا من خلال "مركزه"، ونقصد سؤال الهزيمة والنهوض، الذي على بساطته ما انفك يستدعي مساءلة مرحلة بكاملها وإبراز الخلاصات في شأنها. وبديهي أن البحث عن أسباب

هزيمتنا ليس جديداً. ففي العقود التي تلت هزيمة 1967 انبرت مراكز دراسات وتشكلت أحزاب وقوى ومنظمات مقاومة، كما انبرى أفراد لتقصي أسباب إخفاقاتنا والتصدي لها على أرض الواقع. وقد عنى الأمر فيما عنى تضحيات هائلة يقتضي روح المسؤولية التوقف عندها، وتقويم نتائجها، ومحض الاحترام لكل من اجتهد وأصاب أو أخطأ، والتقدير كل التقدير لكل من جعل من القضايا الوطنية والقومية الكبرى محور حياته.

يعلن المركز انتماءه الصريح إلى التيار القومي التقدمي، و"ينتسب على نحو صريح إلى تجارب الحركة القومية العربية." والسعي للتجديد في مقولات الحركة، وإعادة صوغ مشروعها التاريخي، لا يتمن - على ما يقول الدكتور جورج حبش في التقديم - إلا "في ضوء تقويم مسارات حركة القومية العربية في الماضي وحتى الآن.. وفي ضوء جدول أعمال المستقبل وحقائقه الجديدة..".

كما يقترح المركز على نفسه "العمل من أجل تقويم مسيرة النضال العربي الحديث بكافة مشتملاتها من أفكار وعقائد وحركات ومنظمات وأحزاب وسياسات وبرامج وشخصيات وزعامات ومراحل تاريخية..". أما "تميز" المركز فيتأتى من خصوصية اهتماماته بشأن الصراع العربي - الإسرائيلي على مستوى تقويم الماضي، وذلك من أجل استشراف المستقبل وتهيئة البيئة الصحية للفعل المقاوم.

إذاً، ضمن سياق "المرحلة الأولى" من أولويات المركز المنصبة على "قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي" تندرج باكورة أعماله المتمثلة بالكتاب الذي يحمل عنوان: "من داخل إسرائيل، الآن ومنذ نصف قرن (صراعات داخلية وطموحات خارجية)".

ينطوي الكتاب على "تقديم" للدكتور جورج حبش و"مقدمة" لمحرر الكتاب الدكتور عماد جاد، وثمانية فصول تمثل في الواقع فصلاً مستقلة يجمع بينها الموضوع الأساس المتمثل بإسرائيل من دون أن تكون الفصول مرتبطة بعضها ببعض بصورة عضوية. كما يبدو أن كلاً من الباحثين الثمانية قام بإنجاز التكليف المطلوب منه من دون تنسيق يذكر مع الآخرين في أثناء الإنجاز، الأمر الذي يشرح التكرار الذي نلاحظه بين بعض الفصول، وكذلك بعض التباين في الأرقام؛ وهذا يعكس ليبرالية مبالغاً فيها، ربما، في العمل التحريري.

يتناول عماد جاد في الفصل الأول البعد الديموغرافي في الصراع، وأحمد السيد النجار الاقتصاد الإسرائيلي من النشأة إلى طموحات الهيمنة، وهاجر شوقي الانقسامات والصراعات في المجتمع الإسرائيلي، وأكرم الألفي التعليم، وأمين إسكندر

النظام السياسي، وأحمد إبراهيم محمود المؤسسة العسكرية الإسرائيلية، وأحمد بهاء الدين شعبان العلم والتكنولوجيا، وأحمد ثابت علاقات إسرائيل الخارجية، هذا مع حفظ الألقاب لهذه الكوكبة من الباحثين.

ينجح الفصل الأول في إبراز الأهمية الحاسمة للمسألة الديموغرافية، وفي تقصي مرحلة موجات الهجرة قبل إنشاء الدولة وبعدها، مخصصاً حيزاً متميزاً للهجرة اليهودية من الاتحاد السوفياتي والنتائج الخطرة والبعيدة المدى التي أفرزتها أو هي بصدد إفرانها. كما يركز، وخصوصاً مع موجات الهجرة الأولى، على الربط الذي جرى بين المهاجرين والأرض، وشرح الأشكال التي اتخذتها السيطرة على الأرض رابطاً إياها بالتمويل والأيديولوجيات الوافدة، إلخ. إنها دراسة غنية وموسعة تكرر ما هو معروف، وتضيف إليه، وتتعامل مع الحاضر، وتحاول أن تستشرف. لكن يبدو مفيداً لنا لفت النظر إلى عدة أمور إضافية أهمها:

● لم توفق الدراسة تماماً في توضيح الفارق بين شكلين من أشكال استغلال الأرض الفلسطينية: الأول المتمثل بشراء الأرض وإدارتها من قبل رب عمل يهودي، وأما السواد الأعظم من العمال الزراعيين فيتكون من الفلسطينيين العرب. هذه المرحلة التي عرفت بمرحلة روتشيلد (الفرنسي هذه المرة) ولدت صراعات مريرة داخل الجالية اليهودية في فلسطين وداخل الحركة الصهيونية، وخصوصاً داخل الجناح "العمالي" للحركة الذي رأى في استمرار هذا الأسلوب في استغلال الأرض، والذي يستنسخ ما فعله المستعمرون الآخرون، ضربة كاسحة للمشروع الصهيوني إذ يحيل المهاجرين اليهود على البطالة والإعالة، ويحبط حماسة المهاجرين الجدد. وقد رفع هذا الجناح مع بداية القرن العشرين شعار "العمل العبري" و"الإنتاج العبري"، وكان ذلك بداية الإقصاء المنهجي للفلسطينيين عن سوق العمل، وبداية تشكيل السوق اليهودية المغلقة في مواجهة المنافسة الفلسطينية.

● في الحديث الطويل عن موجات الهجرة، يتطرق الباحث إلى العراقيل التي وضعتها الولايات المتحدة أمام هجرة اليهود إليها، وهذا صحيح، لكنه أمر كان ولا يزال يستحق تفصيلاً وتوثيقاً أفضل وتدقيقاً أعمق في مغزاه؛ فهو يشكل إدانة صارخة للسياسة الأميركية التي مارست انحرافاً حقيقياً في مسألة حقوق الإنسان عندما رأت أن الإنسان اليهودي لا يمكن أن يمارس حقوقه الإنسانية في السفر واختيار البلد الذي يعيش فيه إلا إذا تم ذلك في فلسطين وعلى حساب حقوق الشعب الفلسطيني! هذه الممارسة الغريبة لحقوق الإنسان عبر وضع كوتا تحدد عدد اليهود المقبولين للهجرة إلى الولايات المتحدة تمت في محطات مشهورة وخطرة في تاريخ الهجرة، لعل أبرزها

مطلع القرن العشرين الذي شهد موجات هجرة واسعة من روسيا وأوروبا الشرقية في اتجاه أوروبا الغربية والولايات المتحدة، ومرة أخرى قبيل الحرب العالمية الثانية وفي إبانها، ومرة ثالثة مشهودة في أثناء موجات الهجرة من الاتحاد السوفياتي (يغطيها الباحث جيداً)، وحيث مارست الولايات المتحدة النفاق خلال أعوام طويلة، ومع النفاق الضغط كي يُسمح لليهود السوفيات بمغادرة بلدهم، وعندما أصبح ذلك ممكناً لجأت إلى إغلاق أبوابها أمامهم كي يتجهوا إلى فلسطين.

● وما دام الفصل مخصصاً للوضع الديموغرافي، وفي صلبه مسألة الهجرة، نعتقد أنه كان من المصيب التوسع في الكلام على هجرة اليهود من الأقطار العربية، وبصورة خاصة حيث كانت الهجرة وازنة بحجمها وتأثيراتها السياسية، ونقصد خصوصاً المغرب والعراق واليمن. ومن شأن إثارة هذه القضية تحديد المسؤولية عن رفق إسرائيل الوليدة بجالية يهودية عريقة الوجود في الدول التي وفدت منها، جوال لم تعاني الاضطهاد السياسي أو الاجتماعي أو التمييز. نورد هذه الملاحظة لأن الموضوع لا يقتصر على تحديد المسؤولية التاريخية عن تهجير اليهود من دولهم العربية الأصلية فحسب، بل يتصل أيضاً بالصراع من أجل إنجاز حق العودة للاجئين الفلسطينيين ومحاوله مواجهته بحق مزعوم لليهود "اللاجئين" من الدول العربية، لا في العودة وإنما في "التعويض"، أي افتعال "حق" في مقابل حق!

أمّا الفصل الثاني، "الاقتصاد الإسرائيلي من النشأة على قاعدة المساعدات إلى طموحات الهيمنة الأمنية"، فهو يتناول "الحقائق الأساسية عن الاقتصاد الإسرائيلي" كما كانت عند إنشاء الدولة، وما تطورت إليه الأوضاع خلال العقود اللاحقة، فنعلم أن القطاع الزراعي احتل المرتبة الأولى في اقتصاد الدولة في العقدين اللذين تلياً تأسيسها، ويشرح أهمية اتفاق بروكسل سنة 1952 بين ألمانيا وإسرائيل، وهو الاتفاق الذي أقر "تعويضات" ألمانية لإسرائيل بقيمة 3,450 ملايين مارك، والدور الذي أدته هذه التعويضات في بناء الصناعات الإسرائيلية، وخصوصاً أن 80% منها كانت على شكل معدات استثمارية وآلات من جميع الأنواع. كما يبرز الباحث دور بنحاس سابير، الذي يسميه أب الصناعة الإسرائيلية، والذي أشرف في تلك المرحلة على تطبيق سياسة الإحلال محل الواردات في إسرائيل، هذه السياسة التي كانت المؤسسات الدولية قد تبنتها وعممتها قبل أن تقلع عنها وتبشر لاحقاً بسياسة الإنتاج من أجل التصدير. ويدعو الباحث إلى خلق إطار إقليمي عربي يحرم إسرائيل إمكان استغلال الأسواق العربية والإمكانات الاقتصادية العربية، ويدعو إلى تقويم موضوعي لإمكانات الاقتصاد الإسرائيلي بما يمكن من بناء استراتيجية عربية للمواجهة.

يعالج الفصل الثالث "الانقسامات والصراعات في المجتمع الإسرائيلي"، ويحاول أن يبرز، مستنداً إلى شهادات مسؤولين وإلى وقائع، حاجة إسرائيل إلى عدو خارجي. ويتوقع الباحث أن تتبلور قوة داخل إسرائيل تحاول تأجيل استحقاق الحل السياسي بقدر ما تستطيع كي لا تضطر إلى الإيفاء بمتطلبات هذا الحل، كما تتوخى من جراء المماثلة تأجيل تداعيات التنافر الداخلي. وفي رأينا أن الباحث قد وُفق في تشخيص الصراع بين الأشكنازيم والسفارديم. كما أن هذا الفصل نجح في تبيان الترابط بين الأصول الإثنية والوضع الطبقي في إسرائيل.

ويتناول **الفصل الرابع** "التعليم في إسرائيل معضلات البقاء والدمج والهيمنة"، وفيه ينجح الباحث في إبراز الأهمية التي أولتها وتوليها إسرائيل للتعليم الذي لم تتأثر ميزانيته لا بالإنفاق على التسلح، ولا بتقليص الإنفاق الاجتماعي، ولا بتغيير سياسة الدولة وتحولها من دولة الرعاية إلى ممارسة الليبرالية بأقصى أشكالها. وبقيت إسرائيل تأتي بعد السويد بالنسبة إلى الإنفاق على التعليم. كما نجح الباحث في تقديم التعليم على أساس كونه "منظومة دمج واستيعاب تلعب دوراً جوهرياً في خلق الانتماء والولاء للدولة.."، وكذلك في تظهير دوره في ضبط الصراعات الإثنية والثقافية والاجتماعية. ولا ينتقص من أهمية البحث أن نسجل الملاحظات التالية:

- يبرز الكاتب، وعن حق، الاتفاقية التي عقدتها المنظمات الدينية مع بن - غوريون سنة 7491، والتي أطلقت يد المؤسسة الحاكمة في مجالات متعددة تقع في نطاق الحياة المدنية، مثل قوانين الأحوال الشخصية والتعليم والكشروت. وتكررت هذه الاتفاقيات خلال الأعوام الخمسين من عمر الدولة بصيغ مختلفة كانت تتأثر بالتوازنات. لكن ما لا يجري التشديد عليه هو أن التعليم الديني، قبل أن يكون توازنات بين قوى سياسية، أو تعبيراً عن تعددية سياسية واجتماعية، هو حاجة ماسة للمجتمع الصهيوني بعلمانيه قبل متدينيه. فالدين اليهودي لم يعط الصهيونية شعار "العودة إلى أرض الأجداد"، أو شعار "شعب الله المختار"، أي لم يزودها بالأساطير فحسب، بل أيضاً بما لا يقل أهمية عن ذلك؛ فلا دولة يهودية بلا يهود، ولا يهود بلا معرفة الدين اليهودي وطقوسه، وممارسة هذه الطقوس أو بعضها بصرف النظر عن موقف اليهودي العلماني منها. الصهيوني العلماني كان بحاجة إلى القوى الدينية كي تقوم بتأطير جموع المهاجرين وتعلمهم الدين والطقوس ليس من الخارج كما يمكن أن يفعل التعليم الرسمي.

- يشير البحث إلى وعي القيادة الصهيونية لضرورة فرض اللغة العبرية كلغة تعليم وعلم، ويبرز مثال معهد "التخنيون" حيث جرى صراع بين اللغة الألمانية واللغة

العبرية المستحدثة، وقد تم حسمه لمصلحة الثانية. وهذا توضيح مفيد، لكنه كان ممكناً أن يفيد أكثر لو أن الباحث في دراسته الطويلة والقيّمة تبسّط أكثر مما فعل في موضوع "إحياء" اللغة العبرية على يد بن - يهودا وزملائه وتحويل هذه اللغة إلى لغة علوم وأدب ولغة حياة، والصراعات التي رافقت ذلك. إن "إحياء" اللغة العبرية هو واحد من الأمثلة التي تثبت أن تحويل لغة ما إلى حامل علم وتقانة وأدب، إلخ، مسألة ذات صلة بالتخطيط السياسي والإرادة السياسية والمثابرة، أي احترام الخطط التي توضع والسير في تنفيذها حتى الإنجاز.

● توسع الباحث في تحليل وظيفة النظام التعليمي التربوي كمنظومة دمج واستيعاب، وسجل نجاحات هذا النظام وإخفاقاته، لكنه أهمل وقائع ذات مغزى من نقد هذا النظام لنفسه من داخله، وذلك بصرف النظر عن شمولية هذا النقد أو جذريته. فلنتأمل ظاهرة "المؤرخين الجدد" الذين لا يشكلون وحدة منسجمة لكنهم يمثلون ظاهرة نقدية لبعض أسس الصهيونية، وخصوصاً لجهة ادعائها أنها شغلت أرضاً بلا شعب، ثم ادعائها أنها لم تطرد الشعب الفلسطيني من دياره وإنما خرج لأن الأنظمة العربية دعتّه إلى الخروج الذي ادعت أنه سيكون قصيراً! أو ادعائها أنها كانت تنشد السلام طوال العقود الماضية، لكن الأنظمة العربية كانت ترفض اليد الممدودة!

يعالج الفصل الخامس "النظام السياسي الإسرائيلي"، وهو يفعل ذلك من خلال ثلاث قضايا رئيسية تتمثل بالأيديولوجيا السائدة في النظام ومدى مساهمتها في تشكيل القيم الحاكمة لهذا النظام، ثم من خلال التناول التفصيلي لمؤسسات النظام وأحزابه، ومن خلال تشريح النخب الممارسة في هذا النظام.

ويهتم الفصل السادس بدراسة "المؤسسة العسكرية الإسرائيلية: القدرات والأدوار الاستراتيجية"، فيعالج نشأة المؤسسة العسكرية وتطورها، ومراحل تطور القوات المسلحة في إسرائيل، كما تطور الاستراتيجية العسكرية. ويتناول الفصل كذلك الدور الذي يؤديه العسكريون في الدولة والمجتمع، في رسم أبعاده وحدوده، ويتكلم على التطور التدريجي لهذا الدور من دون أن يتفقت من سيطرة السلطة السياسية على المؤسسة العسكرية. ويرى الباحث أن مشاركة العسكريين في النظام السياسي الإسرائيلي تركزت في أربعة اتجاهات رئيسية: الكنيست؛ الأحزاب السياسية؛ الحكومة؛ قيادة المدن (البلديات).

أمّا الفصل السابع فيهتم بـ "العلم والتكنولوجيا في إسرائيل: الواقع والنظرة إلى المستقبل"، وهو يستهدف بصورة رئيسية توفير صورة بانورامية لرؤية المجتمع الإسرائيلي لدور العلم والتكنولوجيا الحديثة في تحقيق سيطرة هذا المجتمع وإدامة

وضعيته المهيمنة المستندة إلى التفوق النوعي على العرب.

يتميز هذا الفصل بشموله وغزارة معلوماته وموضوعيته، فهو يبرز الأدوار التاريخية لأصحاب القرار في الحركة الصهيونية، ومن ثم إسرائيل، في تشجيع العلم والتكنولوجيا من خلال إجراءات كثيرة أهمها بناء المؤسسات العلمية.

يتقاطع هذا الفصل كثيراً مع الفصل الخاص بالتعليم لجهة المعلومات وعرض المؤسسات التعليمية، لكن يمكن للقارئ أن يلاحظ أن المعلومات والوقائع موظفة بصورة مختلفة في كل من الفصلين. ففي إطار التعليم يجري التشديد على دور المؤسسات في مسألة الاستيعاب والدمج، أمّا في الفصل الذي نحن بصدده فالمؤسسات موضوعة في سياق دورها الأولي الذي وجدت من أجله، أي إنتاج العلم والتكنولوجيا.

ويهتم الفصل الثامن والأخير بـ "علاقات إسرائيل الخارجية"، ويبدو الباحث مهتماً - وهذا صحيح - بنقاط التقاطع بين السياسة والدبلوماسية والتجارة. وفي الواقع يشكل بيع السلاح وتكنولوجيا السلاح والتجهيزات العسكرية والأمنية أهم نقاط التقاطع هذه. وقد نجح الباحث، من خلال أمثلة ملموسة كثيرة، في إبراز "سياسة النفس الطويل" التي نفذتها إسرائيل "بمرونة عالية" ودأب، من نسج علاقات واسعة قائمة على تبادل المصالح والإغراء بتقديم خدمات نوعية والسعي للتحويل إلى بلد تتقاطع عنده دروب التجارة بالسلع التي تحمل نسبة عالية من القيمة المضافة.

مرة أخرى نحن أمام كتاب قيم وجهود طيبة، نتمنى أن تستمر مستفيدة من نواقص وثغرات هذه "الباكورة" كما تسميها المقدمة. من النواقص المؤسفة أن يخلو الكتاب من دراسة مستقلة (فصل) تتناول وضع العرب الفلسطينيين الذين تمكنوا من البقاء في وطنهم بعد نكبة 1948، وكيف استطاعت هذه الأقلية، وفي ظروف الهزيمة الشاملة الفلسطينية والعربية، أن تحفظ ذاتها من التبدد، وأن تعيد صوغ التحامها بشعبها وأمتها وتبلور برنامجها أو بالأحرى برامجها الإحيائية. إن غياب هذه الدراسة يمثل ثغرة نأمل بأن يبادر القارئ على المركز إلى معالجتها بالأسلوب الملائم. ثم كنا نتمنى لو تم عرض مخطوطة الكتاب على مصحح جدي لكان أعفانا وأعفى القارئ من التعثر بهذا الكم غير المعتاد من الأخطاء اللغوية والطباعية في مطبوعات على هذه الدرجة من الجدية.

سليمان الرياشي

كاتب لبناني

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>